أثر السياق في بنية التقديم والتأخير
دراسة بلاغية في جزء "قد سمع"
الباحث/ حسن عطية عبد الحميد عفيفي

ملخص البحث باللغة العربية:

يتناول هذا البحث أثر السياق في بنية التراكيب القرآنية من حيث التقديم والتأخير تطبيقًا على جزء "قد سمع"؛ حيث نجد تقديم اللفظ أو تأخيره يختلف من سياق إلى آخر؛ وهو ما يظهر في كثير من التراكيب القرآنية التي تأتي على نسق معين من التقديم والتأخير، ثم تخالف هذا النسق في موضع آخر، وذلك يثير انتباه المتلقي حول معرفة أسرار هذا التمايز في التعبير القرآني، ليدرك من خلاله بعض جوانب الإعجاز في ذلك النسق البديع الذي لا يمكن فيه بحال تقديم ما أُخِّر أو تأخير ما قُدِّم، وإلا اختل المعنى وغابت روعة الإيقاع.

وجاء هذا البحث في مقدمة، ومحورين، وخاتمة، وثبت بالمراجع؛ وجاء العنصر الأول في الدراسة بعنوان: التقديم والتأخير في إطار سياق واحد، وأثبت خلاله دقة التقديم والتأخير بين عناصر الإسناد وبين المتعاطفات في إطار السياق المتصل، وذلك من خلال نماذج متنوعة من سور جزء "قد سمع"، وجاء العنصر الثاني بعنوان: تمايز التراكيب بالتقديم والتأخير، وتناولت فيه أثر السياق في تمايز التراكيب تقديمًا وتأخيرًا من خلال الموازنة بين نماذج من التراكيب المتشابهة. ثم جاءت خاتمة البحث التي أثبت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

الكلمات الدالة:أثر السياق- التقديم والتأخير- جزء "قد سمع"

ملخص البحث باللغة الإنجليزية:

The Effect of Context in the Structure of deliberate reversal:

A Rhetorical Study of Qad sami'a 'llahu Juz'

This research came in an introduction, two axes, and a conclusion, and it was documented by references. The first element in the study was titled: Submission and Delay within the framework of a single context, during which the accuracy of submission and delay between the elements of attribution and sympathizers within the framework of the related context was proven, through various models of the surahs of the "Qad Same'a" part, and the second element was titled: Differentiation of structures by submission and delay, and dealt with the impact of the context in the differentiation of structures forward and delay through balancing models of similar structures. Then came the conclusion of the research, in which I proved the most important findings.

تقديم:

يذكر البلاغيون أنَّ التقديم والتأخير يكون بحسب الأهمية، وهذه الأهمية لا تعني أفضلية المتقدم على المتأخر، فقد يتقدم المفضول على الفاضل والمتأخر زمنًا على المتقدم في الزمن، أو العكس، وكل ذلك لا يكون إلا حسب مقتضيات السياق الذي يتطلب تقديم ما ينصبُّ عليه الاهتمام، ويحقق تقديمه الدلالة المطلوبة.

وهذا ما وجَّهنا إليه إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني(ت. نحو: ٤٠٧١ه) في صدر حديثه عن التقديم والتأخير بقوله: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يَفتُر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدِّم فيه شيء، وحُوِّل اللفظ من مكان إلى مكان"(١).

وفيما يلي أتناول أثر السياق في بنية التقديم والتأخير تطبيقًا على جزء "قد سمع" من خلال العناصر التالية:

أولًا : التقديم والتأخير في إطار سياق واحد:

أ- <u>التقديم والتأخير بين عناصر الإسناد</u>(٢):

فمن تقديم المسند على المسند إليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢ ﴾ (الحشر). حيث تقدم الخبر"مانعتهم"، وهو المسند الذي حقه التأخير على المبتدأ "حصونهم"، إذ الأصل في هذا التركيب أن يقال: (وظنوا أنَّ حصونهم مانعتهم)(٣)، ويرجع السر في هذا الانزياح إلى ما يتناوله السياق من الحديث عن قدرة الله في إخراج يهود بني النضير من حصونهم أذلة بعد أن كانوا يثقون في قوتها ومنعتها، فجاء تقديم المسند (مانعتهم)؛ لتركيز الانتباه نحو هذه المنعة، وإحداث مزيد من تأكيد ذلك الاعتقاد

---

(١) الجرجاني، عبد القاهر، ٢٠٠٤م، دلائل الإعجاز، ص١٠٦.

(٢) وهي المسند والمسند إليه والمتعلقات؛ والمسند إليه هو الفاعل، وما ينوب عنه في الجملة الفعلية، والمبتدأ الذي له خبر في الجملة الاسمية، أو ما كان أصله المبتدأ، كاسم كان، واسم إنَّ، والمفعول الأول للفعل ظنَّ. والمسند هو الفعل التام، أو اسم الفعل، أو خبر المبتدأ، أو المصدر النائب عن فعل الأمر، أو ما كان أصله خبرًا، نحو أخبار كان، وإنَّ، والمفعول الثاني للفعل ظنَّ، والمفعول الثالث للفعل رأى. والمتعلقات هي: المفعول به، والجار ومجروره، والظرف، والحال، وغير ذلك من القيود التي تتأخر في الأصل عن العوامل، لكن يُقصد لمخالفة هذا الأصل؛ تحقيقًا لنواتج معنوية ولفظية يتطلبها السياق. انظر، عبد العزيز، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، تراكيب بلاغية، ص٢٣،٢٢، قليلة، البلاغة الاصطلاحية.

(٣) انظر، الزمخشري، ٢٠١٢م، الكشاف، ج٤، ص٤٩٧.

وتحققه لديهم، وهو ما يدفع المتلقي إلى السخرية من فرط ثقتهم في منعة هذه الحصون التي لم تغن عنهم من الله شيئًا، وبهذا يتسق تقديم المسند مع سياق إبراز القدرة الإلهية.

ومنه قوله تعالى عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾(المنافقون). جاء تقديم المسند "لله" على المسند إليه "العزة"؛ لإفادة القصر، وهو– كما يذكر الإمام الطاهر بن عاشور– قصر قلب، بمعنى أنَّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين لا لكم كما تحسبون(١).

وأُضيف ملمحًا آخر في جملة:﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو أنَّ التقديم جاء في المسند "لله" فقط على المسند إليه "العزة" دون بقية المعطوفات "ولرسوله وللمؤمنين"؛ فلم يأت التركيب: (لله ولرسوله وللمؤمنين العزة)؛ وذلك لإفادة إفراده تعالى بالعزة المطلقة، التي منها يستمد الرسول والمؤمنون عزتهم، وفي ذلك تنزيه لله – جلَّ جلاله– عن مشاركة المخلوقين، وهو ما يتسق مع سياق الرد على ادعاء المنافقين العزة لأنفسهم؛ بأن جعل عزة الرسول والمؤمنين مستمدة من مصدرها الحقيقي وهو الله عز وجل، بخلاف عزة المنافقين فإنها عزة كاذبة، لا أصل لها.

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾(التغابن). جاء تقديم الخبر "إليه" على المبتدأ "المصير"؛ لإفادة اختصاصه تعالى بمصير العباد دون غيره، وهو ما يتسق مع سياق الحديث عن اختصاصه تعالى بإبداع السموات والأرض، وتصوير الإنسان في أحسن صورة، وعلمه تعالى بكل ما في الوجود ظاهرًا وباطنًا، إضافة إلى ما في هذا التقديم من اتساق فاصلة الراء في الآية مع آيتين سابقتين لها وآية تالية.

ومن تقديم المتعلقات على كل من المسند والمسند إليه قوله تعالى:﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ (التغابن). فقد تقدم شبه الجملة (على الله) وهو من متعلقات الفعل (يتوكل)، لإفادة اختصاصه تعالى بالتوكل عليه وحده دون سواه(٢)؛ لكونه المتفرد بالألوهية سبحانه. ومن تقديمها على المسند فقط قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾(الحشر). حيث جاء تقديم المتعلق "بينهم" على الخبر "شديد"؛

(١) انظر، ابن عاشور،١٩٨٤م، التحرير والتنوير، ج٢٨، ص٢٥٠.

(٢) انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٨، ص١٢٥.

لإفادة التخصيص، فهذا البأس الشديد ليس على المؤمنين؛ إنما هو واقع فيما بين اليهود بعضهم بعضًا، وهو ما يتفق مع سياق الآية من الحديث عن جبن اليهود والمنافقين وحث المؤمنين على الثبات في مواجهتهم.

ومما تقدمت فيه بعض المتعلقات على بعض وفقًا للسياق قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾(التحريم). في الآية تقديم الظرف "عندك" على المفعول به "بيتًا"؛ للاهتمام بمجاورة الله والزلفى منه(١)، وذلك يتسق مع سياق حال امرأة فرعون من الرهبة من فتنة فرعون إياها، ورجائها أن تكون في جوار الله القوي المتين. وقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾(الممتحنة). فقد كشف تقديم المتعلق "إليكم" على المفعول به "أيديهم" حرص هؤلاء الكافرين على إلحاق الأذى بالمسلمين، وذلك من خلال تقديم المعتدى عليهم على الآلة، والتعبير عن ذلك بالجملة الفعلية التي تفيد تكرار البسط وتجدد الإيذاء في كل وقت(٢)، وهذا ما يتفق مع سياق الآية في تنفير المؤمنين من موالاة أقاربهم المشركين، وتذكيرهم بما كان من إبراهيم والذين آمنوا معه من البراءة من قومهم المشركين.

ب- <u>التقديم والتأخير بين المعطوفات:</u>

يتضح ذلك فيما يلي:

- التقديم والتأخير بين "اللهو"، و"التجارة" في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾(الجمعة). يُلحظ تقديم التجارة على اللهو أولًا ثم تأخيرها عن اللهو آخرًا في الآية نفسها، ويرجع السر في ذلك إلى تأمل سياق الحال الذي نزلت فيه هذه الآية، حيث ورد في سبب نزولها أنه قدمت عيرٌ المدينة، وكان النبي- صلى الله عليه وسلم- يخطب يوم الجمعة، وكان من عُرفهم أن يُدخل بالطبل والدفوف والمعازف عند قدومها، فانفض الناس إليها، وكان قد أصابهم شيء من غلاء الأسعار، ولم يبق في المسجد إلا عدد قليل من السابقين إلى الإيمان، فأنزل الله هذه الآية(٣). ولذلك جاء تقديم التجارة أولًا؛ لأنها كانت سبب الانفضاض وليس اللهو؛ وإنما كان اللهو والضرب بالدفوف بسببها، وعلى هذا فقد جاء إفراد الضمير في "إليها"، ولم يقل (إليهما)؛ لأنهم في الحقيقة إنما انفضوا إلى التجارة.

(١) انظر، البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٢٠، ص٢١١.

(٢) انظر، لاشين،عبد الفتاح، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م، من أسرار التعبير في القرآن الكريم، بناء التراكيب، ص١٥٩.

(٣) انظر، أبو حيان، البحر المحيط، ج٨، ص٢٦٥.

وأما تقديم اللهو على التجارة بعد ذلك في قوله:﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾؛ فلأن اللهو أعم من التجارة، فليس كل الناس يشتغلون في التجارة، ولكن أكثرهم يلهون؛ فكان اللهو أعم فقدمه لأجل ذلك حيث كان حكمًا عامًّا؛ وعلى هذا قدمت التجارة في الحكم الخاص؛ لأنها في حادثة معينة، وقدم اللهو في معرض الحكم العام؛ لأنه أعم(١).

– تقديم الصدقة على الصلاح في قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾(المنافقون). فقد جاء تقديم "أصدق" على "أكن من الصالحين"، مع أنَّ الصلاح أعم وأهم من الصدقة، ولكن جاء هذا التقديم اتساقًا مع السياق في الدعوة إلى الإنفاق وعدم الانشغال بالأموال والأولاد؛ فقال تعالى في الآية السابقة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾(المنافقون). وفيها تقديم الأموال على الأولاد؛ وذلك لأن الالتهاء بها أعظم من الالتهاء بالأولاد، كما أنَّ أعظم ما يُلهي الناس في شأن أولادهم هو توفير المال من أجلهم، إضافة إلى أنَّ الآيات السابقة تناولت مقالة المنافقين في ترك الإنفاق على فقراء المؤمنين؛ ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾؛ ولأجل هذا كان البدء بالأموال هو الأنسب والأهم لما يقتضيه السياق.

– تقديم "كافر" على "مؤمن" في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾(التغابن). يقول الإمام أبو السعود (ت. نحو:٩٥١هـ) في سر هذا التقديم: "وتقديم الكفر؛ فلأنه الأغلب فيما بينهم، والأنسب بمقام التوبيخ"(٢)؛ فهو يعزو هذا التقديم إلى أمرين؛ أحدهما: كثرة أهل الكفر بالنسبة لأهل الإيمان، فقدَّم الأكثر على الأقل، والآخر: مناسبته لمقام التوبيخ؛ ذلك أنَّ هذه الآية وردت في صدر سورة التغابن عقب الحديث عن المنافقين في السورة السابقة فناسبها تقديم ما يتلاءم معهم.

وأضيف وجهًا سياقيًا آخر إلى ما ذهب إليه الإمام أبو السعود في بيان سر هذا التقديم، وهو أنَّ تقديم ذكر الكافر على المؤمن في هذه الآية جاء متسقًا مع اسم السورة "التغابن" وما يدور فيها من أحداث يوم القيامة يكون فيها غبن الكافر لنفسه أشد؛ لأنَّ مصيره إلى النار، أما المؤمن الذي قصّر في بعض الطاعات فغبنه يكون أقل؛ لأنَّ مصيره إلى الجنة بإذن الله ، وإن دنت درجته في الجنة عن غيره ممن شمَّر واجتهد في

(١) انظر، د. فاضل السامرائي، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص١٦٣، ١٦٤.
(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج٨، ص٢٥٥.

طاعة ربه. وعليه فقد جاء تقديم الكافر؛ للاهتمام بإبراز غبنه الذي هو أشد الغبن وأعظمه، ولأجل هذا ورد في سياق السورة عقب هذه الآية الحديث عن الكافرين أولًا في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ ﴾(التغابن)؛ لأنهم أصحاب الغبن الأعظم، ثم أتبعه بالحديث عن المؤمنين وجزائهم في قوله:﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ ﴾ .

- تقديم "أخفيتم" على "أعلنتم" في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ ﴾(الممتحنة) جاء تقديم الإخفاء في هذه الآية؛ لأن علمه تعالى بالخفي أدخل في بيان عظمته تعالى وقدرته، ولأجل هذا ورد تقديم الغيب على الشهادة في كل المواضع التي وردا فيها مقترنين في القرآن الكريم، وهي عشرة مواضع([1])، منها قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ ﴾(الحشر)؛ وإضافة لما سبق فإنَّ سياق الحال الذي نزلت فيه آية الممتحنة يدور حول قصة حاطب بن أبي بلتعة، وإسراره إلى المشركين بنبأ عزم النبي – صلى الله عليه وسلم– على فتح مكة؛ فجاء تقديم ما هو ألصق بالقصة، ثم جاء بعده "وما أعلنتم"؛ لإفادة الاستغراق.

ثانيًا: تمايز التراكيب بالتقديم والتأخير:

أ- التمايز بين عناصر الإسناد تقديمًا وتأخيرًا:

يتضح ذلك في المواضع الآتية:

- تقديم متعلق الصفة الحسنى "خبير" في قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ ﴾(المجادلة)، وقوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١ ﴾(المجادلة)، وقوله: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

([1]) وهذه المواضع هي: (الأنعام:٧٣، التوبة: ٩٤، ١٠٥، الرعد: ٩، المؤمنون:٩٢، السجدة:٦، الزمر: ٤٦، الحشر: ٢٢، الجمعة:٨، التغابن:١٨).

﴿٨﴾﴾(التغابن)، في حين تأخّر المتعلق "بما تعملون" في قوله تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾(المجادلة)، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾(الحشر)، وقوله: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾(المنافقون). وعند تأمل هذا التمايز في التقديم والتأخير بين الصفة "خبير" ومتعلقها، نجدها وردت مقدمة على متعلقها "بما تعملون" في سبعة مواضع من القرآن([1])، في حين تأخرت عن متعلقها في تسعة مواضع([2]). والسر في هذا التمايز يعود إلى سياق التعبير في كل موضع؛ بحيث يتقدم المتعلق عندما يكون تركيز السياق منصبًا عليه من أجل تسليط الدلالة عليه أولًا، في حين تتقدم الصفة عندما يكون التركيز عليها؛ فالآية الثالثة من سورة المجادلة تتناول الحديث عما يجب أن يقوم به المتظاهر من زوجته قبل أن يمسها؛ ولذلك كان تقديم العمل هو الأليق لما فيه من تسلط الدلالة على خطورة القيام بعمل يخالف ما أمر الله به، وفي الآية الحادية عشرة من السورة نفسها تقدم المتعلق "بما تعملون" أيضًا؛ وفي سبب تقديمه يقول الإمام البقاعي(ت. نحو: ٨٨٥هـ): "وقدَّم الجار ومدخوله وإن كان علمه سبحانه بالأشياء كلها على حد سواء؛ تنبيهًا على مزيد الاعتناء بالأعمال لا سيما الباطنة من الإيمان والعلم اللذين هما الروح الأعظم؛ لأن المقام لنزول الإنسان من مكانه بالتفسح والانخفاض والارتفاع، ولا يخفى ما في ذلك من حظ النفس الحامل على الجري مع الدسائس؛ فكان جديرًا بمزيد الترهيب"([3]). فالحديث في الآية يتعلق ببعض الأعمال التي يجب أن يُصفّي الإنسان فيها نيته، فرفعة الدرجات المذكورة في الآية والكرامة عند الله لا تكون إلا لمن صفَّى عمله لله ، فلم يدخله رياء أو نفاق؛ فدلالة السياق إذًا مسلطة على نوعية العمل؛ لأجل هذا كان تقديم المتعلق "بما تعملون"؛ وتقديم المتعلق في هذه الآية دليل على أنَّه لا يصح تعليل التقديم والتأخير بمجرد مراعاة الفواصل القرآنية؛ إذ إنَّ التقديم والتأخير في القرآن لو كان لمجرد اتساق الفواصل لتأخر المتعلق في هذا الموضع؛ لتتسق فاصلة هذه الآية مع فاصلتين نونيتين سابقتين، ومع فاصلة ميمية وثماني فواصل نونية – والميم والنون متقاربان، فهما صوتا الغنة– تالية لها.

([1]) وهذه المواضع هي: (آل عمران: ١٥٣، المائدة:٨، التوبة:١٦، النور:٥٣، المجادلة:١٣، الحشر، ١٨، المنافقون:١١).

(٢) وهي: (هود:١١١، البقرة:١٣٤، ٢٧١، آل عمران:١٨٠، لقمان:٢٩، الحديد: ١٠، المجادلة:٣، ١١، التغابن:٨)

(٣) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج١٩، ص٣٧٧، ٣٧٨.

أما في الآية الثالثة عشرة من سورة المجادلة فقد تأخر المتعلق في جملة:﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾، لورودها في معرض الحديث عن تيسير الله على المؤمنين ورفع الحرج عنهم في أمر مناجاة النبي – صلى الله عليه وسلم– فالدلالة منصبة أولًا على الصفة "خبير"؛ إذ المعنى أنه تعالى خبير بما في نفوسكم من محبة النبي – صلى الله عليه وسلم– وحاجتكم إلى مناجاته؛ ولذا فقد يسَّر عليكم، ورفع عنكم الحرج في مناجاته؛ ولأجل ذلك كان تقديم "خبير" هو الأنسب للسياق.

ولمّا كان سياق آية التغابن يتناول الحديث عن أعمال العباد، وما يكون يوم القيامة من غبن المرء نفسه بسبب ما عمل في الدنيا تقدم المتعلق "بما تعملون"؛ لتسلط دلالة السياق نحوه.

وفي آية الحشر لمّا كانت التقوى بمعنى الخوف من الله، فهي حالة قلبية لا يطلع على حقيقتها إلا الله كان من الأنسب أن تأتي الصفة "خبير" على الأصل مقدمة على متعلقها "بما تعملون". وفي آية "المنافقون" جاءت الصفة "خبير" على الأصل أيضًا مقدمة على متعلقها "بما تعملون"؛ لأنها واردة في سياق انقطاع الأعمال بالموت، غير أنَّ العبد إذا كان يقصد إلى القيام بعمل صالح عن إيمان وصدق نية؛ لكن المنية داهمته قبل إتمامه أو القيام به؛ فإنَّ الله الخبير بنية عبده المؤمن يمنحه ثواب ما نوى؛ ولذلك كان الأنسب تقديم الصفة "خبير" لمنحها مزيدًا من أضواء الدلالة.

– تقديم "نورهم" على الفعل "يسعى" في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ ﴾(التحريم)، وتقديم الفعل "يسعى" في قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ ﴾(الحديد). يذكر الإمام ابن الزبير الغرناطي(ت. نحو:٧٠٨هـ) أنَّ السر في هذا التمايز يرجع إلى أنَّ آية التحريم ورد فيها ذكر المؤمنين في معية نبيهم – صلى الله عليه وسلم:﴿ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾، وهذه المعية تشير إلى الشرف وعلو المنزلة؛ فناسب ذلك تقديم "نورهم"؛ لإفادة تحقق النور لهم واستحكامه؛ كرامة لهم بهذه المعية، أما آية الحديد فلم يذكر فيها كونهم مع نبيهم، فناسبه مجيء التركيب على الأصل دون تقديم([1]).

([1]) انظر، ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، ص٤٦٨.

ويضاف إلى ذلك أنَّ آية التحريم واردة في سياق تكريم النبي – صلى الله عليه وسلم– والمؤمنين، ونفي الخزي عنهم؛ ولذا ناسبها تقديم (نورهم)؛ لتسليط الدلالة على تحقق هذا النور لهم يوم القيامة، أما آية الحديد فهي واردة على سبيل البشارة بما يكون يوم القيامة للمؤمنين الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا من انتشار النور بين أيديهم وبأيمانهم، فناسبه مجيء التركيب على الأصل بتقديم الفعل (يسعى)؛ إشارة إلى استمرار هذا النور، وتجدده لهم آنًا بعد آن.

– تقديم المتعلق "في سبيل الله" في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ ﴾(الصف)، وتأخيره في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٧٢ ﴾(الأنفال). حيث تقدم المتعلق "في سبيل الله" على "بأموالكم وأنفسكم" في آية الصف، في حين تقدم المتعلق الآخر "بأموالهم وأنفسهم" على "في سبيل الله" في آية الأنفال. والمتأمل في سياق الآيتين يجد آية الأنفال واردة في سياق الحديث عن غزوة بدر التي كان فيها المسلمون قلة في العدد والعدة، والدولة الإسلامية في بدء نشوئها كانت في حاجة ماسة إلى المال الذي يقيمها والرجال الذين يتصدون لمحاولات وأدها، هذا مع فقر المسلمين وشدة حاجتهم حينئذٍ؛ فناسبها لذلك تسليط الدلالة على المتعلق "بإموالهم وأنفسهم" بتقديمه، أما سياق سورة الصف فهو في الحديث عن الجهاد عامة؛ فناسبه تقديم "في سبيل الله"؛ لتسليط الدلالة على ضرورة الإخلاص لله في الجهاد.

وقد ورد هذا التركيب في القرآن الكريم في سبعة مواضع؛ جاء المتعلق "في سبيل الله" مقدمًا في ثلاثة مواضع؛ منها موضع الصف السابق، والموضعان الآخران هما: قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٩٥ ﴾ (النساء). وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٢٠ ﴾(التوبة). وقد ورد كل منهما في سياق الحديث عن فضل الجهاد في سبيل الله عمومًا دون أن يختص بواقعة معينة؛ فناسبه تقديم "في سبيل الله"؛ للاهتمام بوجهة هذا الجهاد الذي يَعظُم فضله. بينما تأخر في أربعة مواضع؛ منها موضع الأنفال السابق، والمواضع الثلاثة الأخرى هي: قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا

وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾(التوبة). وقوله: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (التوبة). وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجرات). والموضعان: الأول، والثاني واردان في سياق الحديث عن غزوة تبوك، والتي يطلق عليها غزوة العسرة، لِما كان فيها من مشقة الحر وطول السفر وقلة المال الذي يتجهزون به، فناسبه تقديم "بأموالكم وأنفسكم"/ "بأموالهم وأنفسهم" على "في سبيل الله"؛ لتركيز الانتباه على أهمية الإنفاق والنفير في هذه الغزوة .

أما آية الحجرات فقد وردت في سياق الحديث عن ادعاء جماعة من الأعراب حديثي عهد بالإسلام أنهم مؤمنون، وامتنانهم بذلك على النبي – صلى الله عليه وسلم– كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (الحجرات). وقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾(الحجرات). فبينت لهم هذه الآية حقيقة الإيمان، وأنَّه منزلة أعلى من مجرد النطق بالشهادتين الذي يعني الدخول في الإسلام، وأن المؤمن إيماناً صادقاً لا يرتاب في إيمانه، ولا يطلب بإيمانه مطامع دنيوية؛ بل هو يضحي بماله ونفسه في سبيل الله ؛ ولأجل هذا ناسب تقديم "بأموالهم وأنفسهم"؛ للتنبيه على المفارقة بين الحقيقة والادعاء في موقف هؤلاء الأعراب.

ب– التمايز في تقديم المتعاطفات والصفات:

– تقديم التزكية على تعلُّم الكتاب والحكمة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ (الجمعة)، وتأخيرها على تعلم الكتاب والحكمة في قوله تعالى:﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾(البقرة).

وهناك موضعان آخران في القرآن الكريم ذكر فيهما هذا التركيب، تقدمت التزكية في أحدهما، وتأخرت في الآخر؛ وهما قوله تعالى:﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾(البقرة). وقوله:﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ

ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾(آل عمران).

ويرجع السر في هذا التقديم إلى طبيعة السياق في كل موضع، ذلك أنه لمّا ذكر سبحانه في سورة الجمعة قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ﴾، اقتضى المقام تقديم التزكية التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر؛ ليقبلوا ما جاءهم من العلم؛ فالتخلية من الرذائل قبل التحلية بالفضائل. أما آية آل عمران فقد وردت في سياق الحديث عن غزوة أحد، ومعاتبة الله للمؤمنين، وتربيته إياهم، وذلك لما حدث في هذه الغزوة من مخالفة الرماة لأمر النبي – صلى الله عليه وسلم– من أجل الإقبال على الغنائم؛ قال الله تعالى في هذا السياق: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾(آل عمران)؛ فناسب ذلك تقديم التزكية على التعليم في مقام الامتنان عليهم بمبعثه – صلى الله عليه وسلم– فيهم .

أما عن تأخير التزكية في الموضع الأول من سورة البقرة؛ فإنه لمّا كان ظاهر دعوة إبراهيم وإسماعيل– عليهما السلام– أنَّ البعث يكون في الأمة المسلمة؛ لدعوتهما في الآية السابقة: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾(البقرة). كانوا إلى تعليم ما ذُكر أحوج منهم إلى التزكية؛ إذ إن أصلها موجود بالإسلام، فناسب ذلك تقديم تعليم الكتاب والحكمة على التزكية. أما الموضع الثاني من سورة البقرة، فإنه لمَّا كان السياق فيه يتناول حادث تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام؛ وكانت الصلاة أعظم مطهّر للقلوب من أوضار الأدناس(١)؛ لكونها تنهي عن الفحشاء والمنكر، ناسب ذلك مزيد اهتمام بأمر التزكية، ومن ثم تقديمها على تعليم الكتاب والحكمة.

– تقديم صفة حسنى على أخرى مقترنة بها في موضع وتأخيرها في آخر: وذلك في تقديم "غفور" على "رحيم" في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾(المجادلة)، في حين

(١) انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢، ص١٦٢، ٢٤١.

تقديم رحيم على غفور في قوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾(سبأ). وتقديم "عليم" على "حكيم" في قوله:﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾(التحريم)، في حين تقدَّم "حكيم" على "عليم" في قوله:﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الزخرف).

والجدول التالي يبين مواضع اقتران هذه الصفات على هذا النمط من التقديم والتأخير في جزء قد سمع، وعدد مرات ورودها في القرآن الكريم:

الصفتان الحسنيان	مواضع الورود بجزء "قد سمع"	عدد مرات الورود في القرآن الكريم
-غفور رحيم: -رحيم غفور:	- في خمسة مواضع: (المجادلة: ١٢، الممتحنة: ٧، ١٢، التغابن: ١٤، التحريم: ١) -	-إحدى وسبعون مرة -مرة واحدة:(سبأ:٢)
-عليم حكيم: -حكيم عليم:	-في موضعين: الممتحنة:١٠، التحريم:٢ - -.....	-تسع وعشرون مرة. -سبع مرات.

فالمتأمل في مواضع التقديم والتأخير بين كل صفتين من هذه الصفات في الجزء موضع الدراسة وفي القرآن الكريم، يتبين له أنَّ الأصل في الاستعمال القرآني هو تقديم "غفور" على "رحيم"، إذ لم تتقدم "رحيم" على "غفور" إلا في موضع واحد؛ كما أنه غلب تقديم الصفة "عليم" على "حكيم"، حيث بلغت نسبته (٥. ٨٠%) من عدد مرات ورود هاتين الصفتين مقترنتين في القرآن الكريم، في حين جاءت نسبة تقديم "حكيم" على "عليم" (٥. ١٩%) .

وترجع أسرار هذا التقديم والتأخير بين هذه الصفات الحسنى إلى طبيعة السياق الواردة فيه؛ فعند تأمل سياق آية "سبأ" التي هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي تقدم فيها "الرحيم" على "الغفور" فيما جاءا فيه مقترنين- نجد هاتين الصفتين لم يتقدمهما ذكر ما يختص بالمكلفين؛ قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾(سبأ)؛ وإنما تقدمهما أمر عام مما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وقد تأخر ذكر المكلفين إلى ما بعدها؛ فقال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ (سبأ)، والمكلفون هم الذين بهم حاجة إلى المغفرة؛ وأما الرحمة فهي عامة تعم المكلفين وغيرهم؛ فهي كما تشمل المكلفين تشمل البهائم وسائر الأحياء الأخرى؛ ولهذا فإنه لمّا تقدم الآية أمر عام يشمل المكلفين وغيرهم ناسبه تقديم الرحمة التي تشمل الجميع، ولمّا تأخر ذكر المكلفين ناسبه تأخر المغفرة التي تخصهم؛ أما المواضع التي تقدّم فيها الغفور على الرحيم؛ فإنه يتقدمها جميعًا إشارة خاصة بالمكلفين، ووقوع المعاصي منهم، ودعوتهم للتوبة والاستغفار من الذنوب، فتكون المبادرة بالمغفرة لطمأنة المذنبين والخطائين إلى أنَّ يد الله ممدودة إليهم، تعفو عنهم، وتستر خطاياهم؛ لأنه رحيم بهم(١)؛ وذلك كما في آية المجادلة السابقة، وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾(الممتحنة). ذلك أنّ المغفرة بالنسبة للمكلفين هي سلامة، وعفو عن العقوبة، أما الرحمة فهي غنيمة(٢)، والمذنب يستشرف للسلامة من المؤاخذة بالذنب قبل استشرافه إلى حصول الغنيمة؛ فكان في ذلك التقديم مراعاة لنفسية العبد المذنب الذي يؤرقه الشعور بالخطيئة ورهبة العقوبة.

أما عن التقديم والتأخير بين الصفتين "عليم/ حكيم"؛ فإنَّه مع أنَّ الحكمة – كما يذكر الإمام أبو حيان الأندلسي– أثر من آثار العلم وناشئة عنه(٣)؛ إلا أنَّ التقديم بينهما يكون حسب ما يقتضيه السياق؛ فإذا كان السياق في العلم تقدمت الصفة "عليم"، وإذا كان السياق عن الحكمة تقدمت الصفة "حكيم". ففي آية التحريم السابقة لمَّا ابتدأ سياق السورة بعتابه – صلى الله عليه وسلم– على تحريم بعض الحلال على نفسه، وبيان تشريعه تعالى لتحلة الأيمان؛ نظرًا لعلمه تعالى بطبيعة النفس البشرية من سبق القسم منها على فعل شيء، ثم يظهر لها الخير في خلافه، فتندم؛ قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾، من أجل هذا ناسب تقديم الصفة "عليم" التي يترتب عنها حكمته تعالى في تشريع تحلة الأيمان.

أما آية الزخرف؛ فإنها واردة في سياق تنزيه الله – سبحانه وتعالى– عن اتخاذ الولد؛ قال تعالى:﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ

(١) انظر، السامرائي، من أسرار البيان القرآني،١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م، ص١٥٨، ١٥٩.، وانظر، الخضري، دراسات في إعجاز القرآن، ص١٩٠.
(٢) انظر، الزملكاني، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م ، البرهان الكاشف في إعجاز القرآن، ص٢٩٥، ٢٩٦.
(٣) أبو حيان، البحر المحيط، ج١، ص٢٩٨.

ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾(الزخرف). فمقتضى حكمته تعالى، ألا يكون له ولد؛ لأنَّ الناس يطلبون الولد لقوة سلطانهم أو زيادة ملكهم، والله سبحانه مالك السموات والأرض فلا حاجة له إلى الولد؛ فناسب هذا تقديم الحكمة على العلم؛ إذ هي الأهم في تعليل مشيئته تعالى؛ ثم جاءت بعدها صفة العلم لبيان أنَّ هذه الحكمة الإلهية نابعة عن علمه المطلق وقدرته المطلقة.

نتائج البحث:

في نهاية هذا البحث توصل الباحث إلى جملة من النتائج كان من أهمها ما يلي:

- أنَّ ما ذكره البلاغيون من أغراض للتقديم والتأخير كالتخصيص والاهتمام، والتعظيم، وغيرها؛ هذه الأغراض لا تنفك عن السياق، بل هي في الأساس مستلهمة منه؛ وهذا ما أثبته البحث فيما تناوله من شواهد حول التقديم بين عناصر الإسناد والتقديم بين الصفات والمعطوفات في الجزء موضع الدراسة.
- من خلال رصد التراكيب المتشابهة التي تتمايز فيما بينها تقديمًا وتأخيرًا في جزء "قد سمع"؛ تبيّن أنَّ التركيب: "بما تعملون خبير" الذي تقدم فيه المتعلق ورد في ثلاثة مواضع بجزء "قد سمع"، من تسعة مواضع في القرآن الكريم، بينما ورد التركيب: "خبير بما تعملون" بتقديم المسند على متعلقه في ثلاثة مواضع بجزء "قد سمع" من سبعة مواضع في القرآن الكريم؛ وقد بيَّن البحث سر التقديم والتأخير في هذه التراكيب؛ وأثبت أنَّ تقديم المتعلق يأتي في سياقات تتسلط فيها الدلالة على الأعمال؛ في حين يتقدم المسند في سياقات تسلط الدلالة على الصفة أولًا؛ فليس التقديم لمجرد مراعاة الفواصل القرآنية؛ بدليل أنَّ الآية الحادية عشرة من سورة المجادلة ختمت بتركيب "بما تعملون خبير"؛ مع أنه قد سبقتها فاصلتان نونيتان، وتبعتها فاصلة ميمية وثماني فواصل نونية – والميم والنون متقاربان؛ فهما صوتا الغنة– فلو كان مراعاة الفواصل هو الأصل لتقدم المسند في الآية على متعلقه.
- جاء تركيب "في سبيل الله" مقدمًا على الأموال والأنفس؛ في موضع واحد بجزء "قد سمع" من ثلاثة مواضع في القرآن الكريم؛ بينما جاء تقديم الأموال والأنفس في أربعة مواضع من القرآن دون أن يرد بجزء قد سمع. وقد بيَّن البحث أسرار هذا التمايز؛ حيث أثبت أنَّ المواضع الثلاثة التي تقدم فيها "في سبيل الله" جاءت في سياق الحديث عن الجهاد عمومًا دون الحديث عن غزوة معينة فناسبها تقديم "في سبيل الله"؛ لتسليط الدلالة على ضرورة تمحيض الوجه لله ، أما المواضع الأربعة التي تقدم فيها "بأموالكم وأنفسكم"/ "بأموالهم وأنفسهم" على "في سبيل الله"؛ فذلك واقع في سياق الحديث عن أحوال مخصوصة تكون فيها مشقة الجهاد على الإنسان أكثر من غيرها؛ فتتقدم للتركيز عليها في هذا السياق.
- ورد تركيب "نورهم يسعى" بتقديم المسند إليه، على مسنده الفعلي في موضع واحد بجزء "قد سمع"، وهو الموضع الوحيد في القرآن؛ بينما جاء تركيب "يسعى نورهم"

بتقديم المسند الفعلي في موضع آخر في سورة الحديد، وهو الموضع الوحيد أيضًا في القرآن الكريم؛ وقد أوضح البحث أنَّ سر هذا التمايز في التركيب يرجع إلى أنَّ تركيب "نورهم يسعى" قد ورد في سياق الحديث عن المؤمنين في معية نبيهم، فناسبه تقديم "نورهم" زيادة في تكريمهم بتسليط الدلالة أولًا على "نورهم"، أما سياق آية الحديد فقد جاء في بشارة المؤمنين دون أن يذكر معهم نبيهم، فجاء على الأصل.

- وردت الصفتان (غفور رحيم) مقترنتين بهذا الترتيب خمس مرات بجزء "قد سمع"، وإحدى وسبعين مرة في القرآن الكريم، في حين لم تردا باختلاف الترتيب (الرحيم الغفور) إلا مرة واحدة في سورة سبأ؛ وقد بيَّن البحث أنَّ السر في ذلك عائد إلى اختصاص هذا الموضع بوروده في سياق الحديث عن إنعام الله على خلقه جميعًا دون اختصاص بالمكلفين؛ فناسبه تقديم الصفة (رحيم)؛ لتسلط دلالة السياق عليها أولًا، في حين أنَّ جميع المواضع الأخرى التي وردت فيها (غفور رحيم) بتقديم (غفور) على (رحيم)، سبقها ما يختص بالمكلفين، فناسبه تقديم ما يختصهم من المغفرة.
- وردت الصفتان (عليم حكيم) مقترنتين بهذا الترتيب مرتين في جزء "قد سمع"، وتسعًا وعشرين مرة في القرآن الكريم بنسبة (٥. ٨٠%)، في حين وردتا باختلاف هذا الترتيب (حكيم عليم) سبع مرات، أي بنسبة (٥. ١٩%)، ومن خلال تأمل سياقات ورودهما تبيَّن أنَّه حين يكون السياق عن العلم تقدم الصفة "عليم" التي هي أخص بالسياق، أما عندما يكون السياق في الحديث عن إبداع الله وحكمته في خلقه فإنه تقدم الصفة "حكيم" .

المراجع:

١. ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل. ت: عبد الغني الفاسي. بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، د – ت.

٢. ابن عاشور، محمد الطاهر، ١٩٨٤م، تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر.

٣. أبو حيان، محمد بن يوسف: ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، تفسير البحر المحيط. ت: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون. ط: الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.

٤. أبو السعود، محمد بن محمد: تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د– ت.

٥. الألوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د– ت.

٦. البقاعي، برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، القاهرة، دار المكتب الإسلامي، د–ت.

٧. الجرجاني، عبد القاهر، ٢٠٠٤م، دلائل الإعجاز، ت: محمود شاكر ط: الخامسة، القاهرة، مكتبة الخانجي.

٨. الخضري، محمد الأمين، ١٤٣٨ه – ٢٠١٧م، دراسات في إعجاز القرآن الكريم. ط: الأولى، القاهرة، مكتبة وهبة.

٩. الزمخشري، جار الله محمود، ٢٠١٢م، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به ورتب حواشيه: محمد السيد محمد، ط: الأولى، القاهرة، المكتبة التوفيقية.

١٠. الزملكاني، عبد الواحد بن عبد الكريم،١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م، البرهان الكاشف في إعجاز القرآن. ت: د. أحمد مطلوب. ط: الأولى، بغداد ، مكتبة العاني.

١١. السامرائي، فاضل ، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل. ط: التاسعة، الأردن، دار عمار.

١٢. السامرائي، فاضل، ١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م، من أسرار البيان القرآني. ط: الأولى، دمشق، سوريا، دار ابن كثير.

١٣. عبد العزيز، ربيع،١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م، تراكيب بلاغية، ط: الأولى، القاهرة مكتبة الآداب.

١٤. قلقيلة، عبد العزيز: البلاغة الاصطلاحية. ط: الرابعة، القاهرة، دار الفكر العربي، د- ت.
١٥. لاشين، عبد الفتاح، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م، من أسرار التعبير في القرآن الكريم، بناء التراكيب، ط: الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي.